غيبا ، وتترجم الأحداث التى يُجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أى دخلوا فى زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى فى الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أى إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمنى كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء فى الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « مُحمد » فى القرآن أربع مرات ، و « أحمد » وردت مرة واحدة .

والآية التي نحن بصددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾

(سورة الأحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ماوُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان فى بيئة واحدة فى اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان فى أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفى الريف نجد من يسمى « مُحمدًا الكبير » و« مُحمدًا الصغير » .

وكلمة « مُحمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان فى أصل المادة ؛ لأنهما من « الحاء والميم والدال » فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى محمد غير التوجيه الاشتقاقى فى أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلى ، انحل عن معناه الأصلى ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شىء فإنه ينتقل من معناه الأصلى ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل فى أن يصير المعنى الأصلى واقعا .

والدميمة التى يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . .وكلمة « مُحمد » حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مُكرِّم ـ بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة ـ أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحَمْد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة فى « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة فى « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و« محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و« أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى المرحمة »[١] .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أُحُد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فيكسر رَبَاعِيَّته . وتنغرز فى وجنتى الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة فى أُحُد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتى المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتى المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :
- إليك يا أبا بكر . بالله دعنى .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتى بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .

التراب الباقى من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتى أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قتِل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتى وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول » أى اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذى بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذى يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هى التى يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربّى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؟ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسى الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا[1] فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يدبرنا : يكون آخرنا موتًا .

والأمر الثانى : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمانى ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلا بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكنَ الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحُد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسى هذه الآية : « أفإن مات أو قتل » كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه ـ سبحانه ـ يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحُد كل الطوائف والأصناف التى تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح فى موقف ابن أُبىّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل فى طائفتين همَّتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف فى المعركة الأُحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبدالله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادى القوم : « إلىَّ عباد الله إلىّ عبادالله »(١) .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الوقت ـ فى موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبى عليه ، وهو فى هذه المرحلة من الإنهاك المادى البشرى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة فى هذا الضعف وفى هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

---

(١) رواه الحافظ ابن كثير فى التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، فى موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحى » وكانت عنده رَمَكة(١) فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً(٢) من ذُرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو فى قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنته فيه الجراح وكسرت رَباعيته ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل - أبى بن خلف الجمحى - وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه - رسول الله - لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيًّا قد عرف أن رسول الله منهك فجاء فى هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أُبىُّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش »(٣).

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤) .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

(١) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الحوافر .

(٢) الفَرَقُ : مكيال يسع ستة عشر رطلاً = ٧ ك ج تقريبا .

(٣) ابن كثير فى التفسير .

(٤) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبيّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبيّ : والذى نفسى بيده لوكان الذى بى بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبى قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبى إنه خدش بسيط . لكنْ أبى يقول :

ـ لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله لو بصق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل فى عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقة بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : (إنى قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة)[1] .

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٦٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض قربي مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري)[١] .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذى يتعلق بالناس ، فيأتى إلى واحد من قتلى المعركة - وقتلى المعركة ، لا يُغسَّلون ؛ لأن الذى يغسل هو من يموت في غير معركة - يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » - يعنى حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة فى الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسَّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودى للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتخل عنهم فى أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبدالله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمْرُه خاسَ هذا العام أى فسد من آفةٍ مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابرا - أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر - فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنْظِر جابرا ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بى إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدى ما علىّ لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **أشهد أنى رسول الله** » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول الله ؛ فاليهودى لم يرض بشفاعة النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه فى اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، وهو محمد » أى الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد ـ سبحانه ـ ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من « محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدًا ولكنهم يسبون الاسم الذى اختاروه وهو « مذمم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا .. وأمره أبينا .. ودينه قلينا »[1] . وهى تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

(١) قلينا : أبغضنا .

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إنى لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا تعجبون لِمَا يصرف الله عنى من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد »[1] .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث فى غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التى جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية وربُوا التربية التى جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما فى نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أُحُد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

« ومن ينقلب على عقبيه » هى صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة فى معركة أُحُد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أى أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهى مثل قوله : « وَلَّوُا الأدبار » .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب ، والنسائى فى الطلاق ورواه أحمد فى المسند .

ولكن فى قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسى أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسى ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع فى الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًّا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَىّ ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ أى المنافقون ـ وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ أى ضعاف الإيمان ـ .

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضِعاف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه ـ سبحانه ـ من خلقه ، إنه ـ سبحانه ـ أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التى تأتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ

كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغى » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغى أن تضرب زيدا . فقوله: « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » هذا القول قد يدْفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه علىّ ربى فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ

مشيئة الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل فى نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبى : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده . إن اللحظة التى تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتى اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين يقول فى ذلك :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرىء رهن بطىّ كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذَنَباً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بِنْيَة المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقى . فالقاتل حين ينقض بنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلحظ قوله : « بإذن الله » فهى تدلنا على أن الله هو الذى يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِمَلَكٍ واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكَّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك . ومادام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذى يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضي مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى فى العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا فى عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه !؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو !؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرّه فى الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم فى هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهى تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظرى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده فى موكب الإيمان الذى سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافينى ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زُرتك ! » فى ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زُرته فيها ، بل تقول له : أنت الذى عليك أن تقول ـ لأنك بقولك ستعترف أنى زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتنى كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتنى كثيرا ، لَمَا قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتى للتكثير ، وتأتى مثلها « كأين » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأيِّن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأى رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أى أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأى رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبى قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « رِبِّيون » أى ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و« ربيون » أيضا تعنى : أتباعا يقاتلون ، و« ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهى مثل « الربانيين » .

وقول الحق: « فما وهنوا » أى ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتى بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم فى موقفكم فى غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم فى القتال معه أشد من حماس أى أتباع نبى مع نبيهم ؛ لأنه النبى الخاتم الذى سيضع المبدأ الذى ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتى أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفى هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأين من نبى » أى وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أى ما ضعفوا . فكأنه قد حدث فى القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أى ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و« ضعفوا » و« استكانوا » هذه جاءت فى موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و« الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا . و« استكانوا » ماذا تعنى ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذى يأتى للحرب فهو يحتاج إلى كَرّ وفر . أما الذى لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع ـ الألف والسين والتاء ـ وتأتى بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاسْتَفْهَم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأتى لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخبر » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت من الكون يكون وزنها ـ مثلما يقول الصرفيون ـ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذَلوا من الاستكانة : وهى الذلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »[1] . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأتى إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى عن أنس ، وصححه السيوطى .

منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم ترَ كثيراً أحَبَّ ولم يُحَبْ ؟!!

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفى ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله فى الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن تكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كى نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا فى الأسباب التى أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا